عناصر الشعبوية في الخطاب السياسي المغربي

حمداني عمر
باحث مغربي

جميع الحقوق محفوظة © 2017
www.hafryat.com

All rights reserved © 2017
www.hafryat.com

تقديم

يغطي هذا العمل جزءاً من الأدبيات التي تناولت ظاهرة «الشّعبوية» في سياقات مختلفة، والوقوف عند ولوج هذا المفهوم إلى حقل العلوم الاجتماعية، واعتماده في تحليل آليات التجمعات التعبوية، وكيفية توظيف الخطاب الدعائي في الحقل السياسي من أجل التأثير في توجهات الرأي العام، أو حشد الأنصار والمتعاطفين. يهدف هذا العمل إلى تحليل أبعاد الحقل الدلالي الذي يعتمده الأمين العام لحزب العادلة والتنمية في خطابه، ويكشف تداخل أبعاد حقليين دلالين، هما: الحقل الديني، على اعتبار أنّه يشكّل المرجعية الدلالية والفكرية للحزب من جهة، والحقل السياسي، على اعتباره حقلَ التنافس والصراع من أجل الظفر بالسلطة، وتنفيذ برامج الأحزاب، إن أمكنها ذلك، من جهة ثانية. والهدف من ذلك؛ معرفة طبيعة العلاقة التي يقيمها الأمين العام للحزب بين هذين الحقلين، وكيفية اعتماده على المنظومة المعيارية في الحقل الأول، من أجل خدمة الأهداف السياسية والتعبوية داخل الحقل الثاني، ومحاولته توجيه الرأي العام نحو قضايا بعينها.

سيتم التركيز على تتبع الممارسات السياسية أكثر من الجانب الحركي والتنظيمي للحزب، أو منطلقاته الفكرية والأيديولوجية.

انصبّ اهتمام مجموعة من الباحثين، في منتصف القرن المنصرم، على تحليل ظاهرة الشّعبوية، ومحاولة تقديم تعريفٍ معينٍ لها، فكان أهم ما اتفقوا حوله، هو؛ غياب تعريف محدَّد للظاهرة، سواء بربطها بسياق خاص، أو ضمن سياق عام، واتفقوا على أنّ أقصى ما يمكن القيام به؛ هو تحديد العناصر التحليلية للظاهرة، بحسب سياق نشأتها، وشروط تناميها (Allcock, J., et , al.,، ١٩٦٨، ص ١٣٨).

لم يقدم كيلنر وإيونيسكو تعريفاً ما للمفهوم؛ بل أشارا فقط إلى أهميته عند تحليل الخطاب السياسي (Iones-cu, G., et Gellner, E.,، ١٩٦٩، ص ٥)، وحسب فرانسيس بانيسا، هما من أوائل مدخلي هذا المفهوم إلى حقل العلوم الاجتماعية (Panizza, P.،، ٢٠٠٥).

إذا كانت إشكالية التعريف من القضايا التي ظلّت عالقة بالنسبة إلى مفهوم الشّعبوية، فإنّ أعمال مجموعة من الباحثين انصبت على تحديد عناصر تحليل الظاهرة، أكثر من التركيز على إشكالية التعريف. وهكذا نجد أنّ ماركريت كانوفان، اهتم بمعرفة الأسس التي يبني كلّ زعيم سياسي مقومات خطابه الشّعبوي للتموقع الفعال داخل الحقل السياسي، بالنظر إلى ما يعرفه هذا الحقل من تعقيدات (Canovan, M.،، ١٩٩٩، ص ٤). أما كامود، فيعدّ هذا المفهوم مأسَّساً على بعد واحد، هو المعنى المراد من مفهوم الشعب في حد ذاته. فالشّعبوية، بالنّسبة إليه، ليست إلّا أيدولوجيا تتأسس على تقسيم المجتمع إلى قسمين منفصلين ومتضادين،

هما: «الشعب الطاهر» من جهة، و»النخبة الفاسدة» من جهة ثانية (Mudde, C.,، ٢٠٠٤، ص. ٥٦١). تعلن الفئة الأولى، في كلّ مناسبة، استعدادها للدفاع عن الشعب، وعن هويته، وثقافته، ومصالحه، وتعدّه مصدر المشروعية السياسية، بينما، في رأيها، إنّ الفئة الثانية لا تدافع إلّا عن الإرادة العامة، وتوجهات السلطة المركزية. فالنخب السياسية، بالنسبة إلى كا مود، في مخيله الشّعبوي، ليست إلّا لوبيات تدافع عن مصالحها الخاصة، مستغلة النفوذ الذي تمنحه لها الدولة (Mudde, C.,، ٢٠٠٤، ص ٥٦١). في نفس الاتجاه، يعدّ علي أومليل «الشّعبوية تخلط بين الشعب كمثال رومنسي، وبين الشعب كمعطى سوسيولوجي» (أومليل، ع، ٢٠١٣، ص ٢٤). والخطاب الشّعبوي يضع الشعب في مقابل النخبة والقلة التي تحتكر السلطة والثروة « (أومليل، ع، ٢٠١٣، ص ١٦١).

إضافةً إلى ذلك يركّز آلان نايت في سياق آخر (أمريكا اللاتينية) على أهمية اعتماد الخطاب الشّعبوي في الحقل السياسي لتقسيم الشعب إلى فئتين متضادتين، تعلن الفئة الأولى دفاعها عن الشعب وتمثيله، بينما تعدّ الفئة الثانية نفسها لا تنتمي إلى الشعب، ولا تدافع عن مصالحه، وقد تتّخذ أشكالاً مختلفة؛ إما النخبة، أو «الأوليغارشية» التي تعدّها مسيطرة على الدولة، أو الأجانب، أو الخونة، أو الآخر المختلف عن الجماعة بشكل عام (Knight, A.,، ١٩٩٨، ص ٢٢٩).

كما يضيف بعداً آخر لا يقل أهمية عن العنصر الأول؛ هو الأسلوب المتَّبع في ممارسة السياسة في البلاد، فهذا الأخير، بالنسبة إليه، هو من يذكي حدّة تنامي الخطاب الشّعبوي، والإقبال عليه من طرف الفريقين؛ الكتلة الناخبة من جهة، والزعماء السياسيين الذين يمثلونها من جهة ثانية (Knight, A.,، ١٩٩٨، ص ٢٣٤). أما إيف ميني، وإيف سورل، فيرجعان تنامي الخطاب الشّعبوي إلى وجود أعطاب منهجية في الديمقراطية المعتمدة في البلد (Mény, Y., et Surel, Y. ، ٢٠١٢، ص ٥). واللجوء إلى توظيف الخطاب الشعبوي في الحملات الانتخابية لا يقتصر على تيار سياسي معين، أو حركة ذات خلفية أيديولوجية معينة؛ بل يعني جميع أطياف التنظيمات السياسية، سواء تعلق الأمر بأحزاب اليمين، أو اليسار، أو أحزاب الوسط (Canovan, M.,، ١٩٨٤، ص ٣١٣).

يشكّل كلّ من تقسيم الشعب واحتكار تمثيليته، والدفاع عنه وعن هويته الثقافية، وتخوين الآخر، وعدّه مدافعاً عن مصالحه الخاصة، العناصر الأساسية المعتمدة في الخطاب الشّعبوي.

تتطرق المحاور اللاحقة إلى تحليل مدى حضور هذه العناصر في خطاب الأمين العام لحزب العدالة والتنمية، مع الوقوف قبل ذلك على كشف المحددات التي يتأسس عليها الخطاب الشّعبوي، ويستمد مشروعيته منها، يليها تقديم منهجية العمل، وقاعدة المعطيات المعتمدة فيه، وبعدها تقديم نبذة عن التنظيم، وسياق تحوله من

حركة اجتماعية بمضمون ديني، إلى حزب سياسي بمضمون دعوي.

وفي النهاية؛ مناقشة قضية الديمقراطية في خطاب الأمين العام للحزب، مع تقديم خلاصات عامة في نهاية العمل.

محددات تنامي الخطاب الشّعبوي

تفيد الإطلالة الأولى على الكتابات التي تناولت ظاهرة الشّعبوية في تحديد عناصر الظاهرة، ومعرفة الظروف والشروط، التي تساعد في نموها، وتجعل الناس يقبلون عليها، كما تفيد، كذلك، في فهم الشروط الاجتماعية والثقافية التي تساعد الزعماء السياسيين في ولوجهم إلى الحقل السياسي، فهي -على العموم- ظاهرة تتداخل فيها أزمة تدبير الشأن السياسي في البلد، وأزمة فاعلية الأحزاب داخل هذا الحقل السياسي.

تختلف التفاسير التي تبرر إقبال الناس على دعم الأحزاب التي تتبنى الخطاب الشّعبوي من منطقة لأخرى؛ ففي مقال مشترك لمجموعة من الباحثين حول؛ مَن يدعم الشّعبوية؟ وما الذي يجعل الناس يقبلون عليها؟ سعى هؤلاء الباحثون إلى عدّ انتشار الظاهرة وإقبال الناس عليها مرتبطاً بتصورهم حول مدى فعالية النظام السياسي، وينقسم هذا التصور إلى صنفين؛ يقر الصنف الأول الفعالية الخارجية للنظام السياسي، أما الصنف الثاني فيعدّ النظام السياسي متميزاً بالفعالية الداخلية. يعدّ الصنف الأول، الذي يقر بوجود فعالية خارجية للنظام السياسي، أنّ لا تأثير له في قرارات الزعماء السياسيين، والاختيارات الحكومية، سواء تعلق الأمر بالمجال السياسي، أو ما يترتب عليه في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. أما الصنف الثاني؛ الذي ينظر إلى وجود فعالية داخلية للنظام السياسي، فيعدّ مشاركته في العملية السياسية مؤثرةً في قرارات الزعماء الحزبيين، ولها أثر إيجابي في حياته الاجتماعية والاقتصادية (Joshua, D. J., et Lascher, L. E.,، ٢٠٠٩، ص ٤٠٥).

يخلص هذان الباحثان إلى أنّ غياب فعالية النظام السياسي تفسّر، لدرجة أكثر من النصف، مدى إقبال الناس على تبني مواقف الشّعبوية، وتجسيدها في الممارسات السياسية المعتادة؛ كالتصويت على أحزاب اليمين التي غالباً ما تتبنى خطاباً متمركزا على الهوية، ومعادياً للآخر[1] (Spruyt, B., et al.,، ٢٠١٦، ص ١٠)

يضيف برام سبروت في عمل آخر لوحده، أنّ كلاً من طبيعة الظروف الاجتماعية، وضعف الثقة في النظام السياسي هي إحدى أهم العناصر التي تجعل الناس يقبلون على دعم واستهلاك الخطاب الشّعبوي

1 يقصد بالآخر هنا: المهاجرون الأجانب، لا الأحزاب السياسية المنافسة.

(Spruyt، 2014).

أما كريسا دويكس، فيعدّ شروط نشأة الخطاب الشّعبوي وتناميه في الحقل السياسي تختلف من باحث لآخر، وتحصرها في ثلاثة شروط، هي: الظروف السوسيواقتصادية في البلد، وتعاقب الأزمات، ووجود زعماء سياسيين ذوي جاذبية خاصة (Deiwiks, C.، ٢٠٠٩). هكذا يتأسس الخطاب الشّعبوي على مجموعة من الشروط؛ منها ما له علاقة بالأوضاع السوسيواقتصادية للكتلة الناخبة، ومنها ما يرتبط بطبيعة النظام السياسي القائم، التي تتميز بوجود منظومة قانونية ودستورية تعمل على تسييج كلّ خطاب لا يتماشى مع المنظور العام لتوجهاته، وتحدّ من دينامية الأحزاب السياسية القائمة وصلاحياتها.

منهجية العمل ومعطيات التحليل

تهدف الأدبيات السابقة إلى تحديد عناصر الخطاب التي تجعل منه خطاباً شّعبوياً، والمحددات الأخرى التي تجعل الناس يتبنونه، ويقبلون عليه، ومن أجل الوقوف على مدى حضور هذه العناصر في خطاب الأمين العام لحزب العدالة والتنمية، والبحث عن كيفية توظيفه لهذه العناصر، ونزعها من حقليها، الاجتماعي والديني، وتوظيفها في الحقل السياسي، إمّا بهدف تبرير القرارات الحزبية أو الحكومية، أو بصرف النظر عن مناقشة هذه القرارات، وإبداء آراء مخالفة بشأنها، أو بهدف تقوية لحمة التضامن الداخلي لأعضاء وعضوات الحزب، أو لإضعاف المنافسين الحزبيين والتشكيك في نزاهتم وفي اختياراتهم.

تشكّل الفيديوهات المسجلة في الموقع الرسمي للحزب المادة الرئيسة لهذا العمل، بالنظر إلى ما أصبح يشكله الإعلام البديل من فرصة لتبادل الآراء والترويج لهكذا خطاب، سيتم اعتماد منهجية تحليل مضامين هذه الفيديوهات التي تغطي المرحلة الممتدة بين المحطتين الانتخابيتين السابقتين، الانتخابات البرلمانية المبكرة في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١١، والانتخابات البرلمانية في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٦، وبلغ مجموع عدد هذه التسجيلات ٥٣٢ تسجيلاً.

لأسباب منهجية؛ سيتم الاقتصار على ثلاثة أشكال من هذه التسجيلات: الشكل الأول؛ هو الخطاب الموجه إلى أعضاء الحزب، ويتم غالباً في مقرات الحزب أو في أماكن خاصة، بينما الشكل الثاني: هو الخطاب الموجَّه إلى عموم أعضاء الحزب والمتعاطفين معه، ويتم في أماكن عامة، خلال الحملات الانتخابية أو المهرجانات الخطابية، أما الشكل الثالث من الخطاب؛ فهو الخطاب داخل البرلمان، وبإمكان عموم الناس مشاهدته؛ لأنّه ينقل عبر قنوات الإعلام العمومي، وقد تم الاستغناء عن التسجيلات التي تبتعد عن الموضوع

الرئيس لهذا العمل[٢]؛ لأنّها ترتبط بقضايا لا تدخل ضمن نطاق البحث، ويتعلق الأمر بالخطابات المرتبطة بالتعليق على قرارات معينة لوسائل الإعلام، أو المشاركة في مراسيم تأبين لبعض الأعضاء المتوفون الذين ينتمون إلى الحزب، أو بعض الزعماء السياسيين الآخرين، أو حوارات مع قنوات تلفزيونية، ستتم الإحالة إلى هذه التسجيلات بأرقامها الواردة في الموقع الرسمي لإعلام الحزب[٣].

نبذة عن التنظيم

من جمعية الشبيبة الإسلامية؛ التي أسسها عبد الكريم مطيع عام ١٩٦٩، إلى تأسيس «جمعية الجماعة الإسلامية» عام ١٩٧٣، بعد إصدار بيانين يفكّان الارتباط، التنظيمي والمنهجي، مع الجمعية السابقة، معلنين بذلك نبذ العنف وتأييد النظام الملكي (جاسم، أ.، ن.، ص ٢). بعد ذلك أسّس أعضاء لا يتجاوز عددهم ١٥٠ عضواً حركة «التجديد والإصلاح»، بحسب الأمين العام الحالي للحزب (فيديو رقم، ٨٩). ثمّ ستغير اسمها لتصبح حركة «التوحيد والإصلاح»، وأخيراً التحاق أغلبية أعضاء هذه الحركة، إلى جانب أعضاء من جمعيات إسلامية أخرى في حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية، وتأسيس إطار سياسي جديد تحت اسم «حزب العدالة والتنمية» سنة ١٩٩٨، مع الاحتفاظ بالجميعة كإطار دعوي داعم للحزب.

اختارت الحركة في البداية تسمية «الإصلاح والتجديد» التي تستمدّ دلالتها من مفهومين يعودان إلى المنظومة الدينية الإسلامية، معلنةً في أحد الجرائد التابعة لها (الراية، ١٩٩٢) أنّها تؤمن بإحياء تدول المصطلح القرآني السنّي، وتسعى إلى إقامة معانيه ودلالته في النفوس، وفي واقع الحياة.

والإصلاح، بالنسبة إليها، هو جوهر دعوة الأنبياء وورثتهم من العلماء والدعاة، وأساس مشروعهم في التغيير (الطوزي، م، ٢٠٠١، ٢٣٥)؛ إذ أعلنت الحركة في الجريدة نفسها، عشية اندماجها في حزب عبد

2 أما القنوات الموجودة «يوتيوب»، الخاصة بحزب العدالة والتنمية؛ فهي عديدة، أهمها: موقعين، الموقع الأول: يحمل إسم «PJD TV»، وبه 1233 فيديو، حصلت على سبعة ملايين و187 ألف مشاهدة، إلى تاريخ 29 شباط (فبراير) 2016، وفيه كلمات لبعض الوزراء، وتعليقاتهم على بعض الأنشطة الحكومية التي قاموا بها، وبه كذلك كلمات لقياديين آخرين بالحزب، وكلمات لبعض الفنانات المغربيات اللواتي يتعاطفن مع الحزب، وبه أيضاً بعض التصريحات لوزراء آخرين بالحكومة الذين يعلنون عن دعمهم لبعض القرارات التي اتخذها الأمين العام للحزب إبان ترأسه للحكومة. والثاني «ح. ع. ت تواصل» بالفرنسية؛ وفيه 4606 من الفيديوهات، منها تسجيلات مرتبطة بالمهرجانات الخطابية خلال الحملات الانتخابية للحزب، إضافة إلى العديد من الفيديوهات الخاصة بكلمات الأمين العام للحزب خلال مناسبات متنوعة وفي مناسبات مختلفة، ومنها خطابه كرئيس للحكومة، وتصريحاته داخل البرلمان، ومشاركته في تأبين وعزاء زعماء حزبيين آخرين. إضافة إلى حضوره لأنشطة الأطفال وغيرها من المناسبات الاجتماعية والسياسية. كما توجد قناة خاصة بشبيبة العدالة والتنمية، وتضمّ 193 فيديو، إلى جانب هذه المصادر، توجد على موقع «يوتيوب» قناتان تعرضان بعض أنشطة الحزب (Chanel)؛ القناة الأولى: تحمل اسم «عبد الإله بنكيران»، فيها 314 فيديو، لكن ليست كلّها مخصصة لخطاب بنكيران؛ بل توجد إلى جانب تصريحاته، فيديوهات أخرى مرتبطة بمقابلات كرة القدم وبعض الأفلام وغيرها من المواضيع. أما القناة الثانية فتحمل إسم «فضائح عبد الإله بنكيران»، وتضمّ تسعة فيديوهات، أضيفت كلّها في (تشرين الأول) أكتوبر 2016، وعدد المشاهدات التي حصلت عليها لم يتعدّى الـ 371 مشاهدة، يبدو أنها أضيفت بمناسبة الحملة الانتخابية الأخيرة.

3http://tv.pjd.ma/category/%D8%AA%D8%B5%D9%86%D9%8A%D9%81%D8%A7%D8%AA/1/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%8A%D9%86%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%85.html

الكريم الخطيب، عن طبيعة علاقتها بباقي الفرقاء السياسيين، موضحةً أنها لا تريد أن تنازع في الأمر أهله (الطوزي، م، ٢٠٠١، ص ٢٤٦).

شارك الحزب، منذ تأسيسه، في جميع محطات الانتخابات التشريعية والجماعية؛ حيث حصل على تسعة مقاعد، من بين ٣٢٥ مقعداً، خلال انتخابات ١٩٩٧، و٤٢ مقعداً من بين ٣٢٥ مقعداً خلال الانتخابات التشريعية لعام ٢٠٠٢، و٤٦ مقعداً من بين ٣٢٥ مقعداً خلال الانتخابات التشريعية لعام ٢٠٠٧، ليحقق طفرة نوعية من حيث النتائج خلال الانتخابات التشريعية لسنة ٢٠١١؛ إذ احتلّ المرتبة الأولى من حيث النتائج بـ ١٠٧ مقاعد من بين ٣٩٥ مقعداً، كما حافظ الحزب على صدارة نتائجه خلال الانتخابات التشريعية التي تلتها سنة ٢٠١٦، بـ ١٢٥ مقعداً من بين ٣٩٥ مقعداً. وتكمن أهمية هذه النتائج في أنّها مكّنت الحزب من تصدر المشهد الحزبي في المغرب، وتقوية جانبيه السياسي والتنظيمي؛ إذ يعدّ أحد القيادين السابقين في حركة «التوحيد والإصلاح» أنّ العمل الحزبي، على مستوى الممارسة، لدى حركة «التوحيد والإصلاح»، قد تضخّم وانتفخ انتفاخاً سرطانياً حتى أتى على كلّ مكتسبات الحركة التربوية ومكاسبها الاجتماعية (الأنصاري، ف، ٢٠٠٧، ص١٢).

التذكير المتكرر بالانتماء للمرجعية الإسلامية أو التعصب الناعم

من خلال تتبع تكرار الكلمات التي تحيل إلى الحقل الدلالي للمنظومة الدينية، يتّضح حضور هذا البعد المرجعي في الخطابات الموجهة لأعضاء الحزب، والمتعاطفين معه بشكل أكبر ممّا يوجد في باقي الخطابات الأخرى، ويتجلى ذلك من خلال استعمال الرموز الدينية، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، إضافة إلى حضور مصطلحات أخرى مستقاة من المرجعية الدينية الإسلامية، مثل: الثقة، والصبر، والمصداقية، والعهد، والوفاء.

لا يتردّد الأمين العام بالتذكير بأنّ حزبه سليل الحركة الإسلامية، ويتبنى المرجعية الإسلامية؛ فهي رأسماله وهويته، وسلاحه، وعدته لبناء المستقبل؛ حيث يطالب أعضاء شبيبة الحزب بأن يعرضوا أنفسهم على هذه المرجعية كلّ يوم (فيديو رقم ١٠٤)، وتتأسس هذه المرجعية، والكلام دائماً للأمين العام للحزب، على أمرين: الأمر الأول؛ هو ما يسعون إليه في أمور الأمة من عدل ونصر وتقدم، أما الأمر الثاني، فهو ما له حظّ في نفوسهم. يضيف، في فيديو آخر، «إنّ هذه المرجعية هي التي أوحيت إلى النبي محمد (ص)، وآمن بها الصحابة، والمهمّ بالنسبة إلينا (الحزب) أن تصل إلى قلوب الناس، قبل أن تصل إلى ظروفهم المعيشية أو تغير أوضاعهم السياسية»(فيديو رقم ١٠٤). وفي خطاب آخر وجّهه إلى شبيبة حزبه، أوصاهم «بالاجتهاد في حسن تعلّم الدين الإسلامي، وحسن فهمه، وحسن الالتزام به، وفي تطبيقه في السياسة، من

الصغيرة حتى الكبيرة»(فيديو رقم ١٠٨).

يشكّل استحضار المرجعية التنظيمية والدينية للحركة أو الحزب، أحد أهم الركائز التي يبني عليها الأمين العام للحزب خطابه الموجّه إلى المنخرطين داخل الحزب والمتعاطفين معه، ويهدف من خلال ذلك إلى إبراز الطريق الذي يرغب في السير على نهجه، ويعرّفه بأنّه طريق شاق ومختلف، على اعتبار أنّ حزبنا ليس دكاناً، كباقي دكاكين الأحزاب السياسية الأخرى (فيديو رقم ٣٣٧).

إنّ إذكاء حدّة التعصب للانتماء الديني تساعد في تأسيس خطاب مطمئن حول المسار كما الآفاق، ناهيك عن كونه يوحّد المختلف حول نفس الأهداف، وتحت غطاءٍ سياسي موحّدٍ. فوحدة المسار هذه، والوثوق التام في صوابيته، تشكل القضية المفصلية في خطاب الأمين العام للحزب، مدركاً أنّ ضعف التعصب للانتماء المشترك، لا تضعف التنظيم وحده؛ بل تضعف العزيمة أيضاً، فالتعصب للانتماء المشترك الذي لا يتردّد في التذكير به، يساعده، مع الباقين، في الاطمئنان للاختيار المعلن، وهذا الاختيار يتطلب، بالنسبة إليه الصبر، وعدم الاهتمام بالنتائج بشكل سريع (فيديو رقم ١٠٤)، لتثبيت هذا الاختيار، وإبعاد كلّ احتمال لبروز آراء فردية تحتكم إلى تحليل الواقع السياسي الحالي، والوقوف على تناقضاته، السياسية والتشريعية، في طبيعة العلاقة التي تقيمها الدولة مع المجتمع.

يذكّر الأمين العام شبيبة الحزب، بأنّ تتبّع نهج الزهد في المناصب، على اعتبار أنّ « كلّ ما هو موجود فيكم، كان موجوداً في الذين سبقكونكم، لكن الجميع ذهبوا، ولم ينفعوا وطنهم أو شعوبهم، حين تصارعوا للحصول على الامتيازات والمناصب، وما سيأتي به العمل السياسي بالضرورة» (فيديو رقم ١٠٤). ويهدف من خلال هذا النهج إلى إخماد الطموحات الشخصية التي تسعى إلى تحمل المسؤولية، سواء داخل الحزب، أو ممثليه في الانتخابات الجماعية أو التشريعية وباقي المناصب الحكومية، أو في مؤسسات الدولة.

إذا ما تم استثناء وقوفه المباشر على تحديد طبيعة هذه المرجعية، والمسار الذي ينبغي أن يسلكه أعضاء التنظيم، وكذا التذكير بالبدايات الأولى لنشوء «الجمعية الإسلامية»، فإنّ تكرار كلمة «المرجعية الإسلامية» يبقى ضعيفاً بالمقارنة مع تكرار كلمات أخرى تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي؛ فكلمة «الله» تتكرّر بشكل أكبر من باقي الكلمات التي لها علاقة بالحقل الديني، خاصة في الخطابات الموجهة إلى أعضاء الحزب والمنخرطين فيه، تليها كلمة «الرسول»، إضافة إلى كلمات أخرى تنتمي إلى نفس الحقل الدلالي، منها: الثقة، والعهد، والصبر، والتضحية.

التواصل الدائم مع الناس بدل الإصلاح هو برنامج الحزب

شكلت كلمات من قبيل: التوحيد، والتجديد، والإصلاح، والتنمية، والعدالة، المفاتيح التي تأسّس عليها حزب العدالة والتنمية، فمن المفترض أن تشكّل هذه المفاتيح برنامجه السياسي، وأن تنعكس في قراراته الحكومية، لكنّ بعد سنتين بعد حصول الحزب على كرسي رئاسة الحكومة، سيعلن أمينه العام أنّ «الإصلاح صعب، وطويل، وتوجد مقاومات في المجتمع، فالكلّ كان يستفيد من المنطق القديم، لهذا فهؤلاء يرفضون القبول بالمنطق الجديد (فيديو رقم ٨٩)، وإذا كنا نرغب في تحقيق أهدافنا، علينا الحصول على السلطة، فاكتساب هذه الأخيرة يتطلب عملاً طويلاً وشاقاً، وفي انتظار ذلك ينبغي الحفاظ على التواصل الدائم مع الناس، وتبرير القرارات التي اتخذتها الحكومة وتبناها الحزب، دون نسيان هدف الحزب؛ وهو تطبيق منظومتنا الدينية، في ما ينسجم مع مرجعيتنا. أما صناديق الاقتراع، فليست إلّا مناسبة للتواصل مع الناس، فلا ينبغي، بأيّة حال، عدّها مكسباً؛ لأنّ هدفنا هو السلطة. والسلطة كالعصا؛ إن لم نأخذها فسنضرب بها، سنحقق التقدم من خلال وصولنا إلى مواقع المسؤولية، أو ترسيخ مرجعيتنا الإسلامية (فيديو رقم ٨٩).

رغم أنّنا حزب في الحكومة ونترأسها، فإنّنا نعارض الفساد والاستبداد، وسبب تأخيرنا في القيام بذلك، منذ البداية، هو وجود الفساد في أيّ مكان، وهو ما جعل الحزب يختار التركيز على الأولويات بدل الاصطدام مع الجميع (فيديو رقم ٨٩). يضيف في فيديو آخر؛ «إنّ بعض الأحزاب تؤخذ عليه ازدواجية مواقفه، باعتباره حزباً مشاركاً في الحكومة، ويحمل خطاباً معارضاً لها، فيجيب إنّه لا يجد أيّ حرج في الدفاع عن الدولة والمقاولة، والشعب، والمجتمع، وعن الفئات الهشّة أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، بينما يعارض الفساد، ويقف ضدّ الاستبداد أيام السبت والأحد (فيديو رقم ٣٠٣٦).

التوظيف المزدوج للشعب في الخطاب

شكلت كلمة «الشعب» إحدى أهم مفاتيح تحليل خطاب الأمين العام لحزب العدالة والتنمية، فالكلمة تتكرر بكيفية منتظمة في الأشكال الثلاثة للخطابات، إلّا أنّه يختلف في توصيف الشعب باختلاف المجال والسياق الذي يخاطب منه الأمين العام للحزب مخاطبيه. فلا يخفي، حين يكون الخطاب داخل البرلمان، الإشادة بذكاء الشعب المغربي، وتيقظه في التمييز بين من يكذب عليه ومن يقول له الحقيقة، وبقدرته الهائلة على التمييز بين الصادق والكاذب، ويعدّ الأحزاب الأخرى واهمة حين اعتقدت غير ذلك. أما أمام المتعاطفين والمنخرطين بالحزب، فتصبح للشعب ثقافة سلبية ينبغي تغييرها؛ فرهان الحزب بالنسبة إليه هو دولة في خدمة الشعب بدل شعب في خدمة الدولة، على اعتبار أنّ الشعب ألف البحث عن الحلول السهلة

عبر الوسائط (فيديو رقم ١٠٨). كما أنّ مشكل المغرب ليس في الملك أو في الحكومات، بل في العقليات وسيادة عقلية التحكم؛ لهذا يتطلب الوضع إصلاح الثقافة الشائعة في المجتمع، وإصلاح العلاقات، وإصلاح تصرفات الإدارة كذلك (فيديو عدد ٢٧٧).

قضية الديمقراطية

إذا شكلت الديمقراطية الداخلية للحزب واجهة تعبوية لأعضائه ولباقي المتعاطفين معه، ممّا يمكنهم من إبراز تميزهم التنظيمي عن باقي الأحزاب السياسية الأخرى، إلّا أنّها تبقى قضية غائبة عن خطاب الأمين العام للحزب، فلم يتناولها إلّا بشكل مقتضب وضمن سياق محدد، وليس باعتبارها مزجاً بين الهوية الثقافية والفكر العقلاني والحرية الشخصية، وقد طورته أدبيات العلوم السياسية في السنين الأخيرة (تورين، آ، ٢٠٠٠، ص ٢٣).

يبقى الموقف من أدبيات العلوم السياسية السؤال المؤجل، ليس في خطاب الأمين العام للحزب فقط، بل في أدبيات وخطاب أغلب الحركات الإسلامية، مع مراجعات طفيفة لدى البعض، بشكل خافت وانتقائي، أو على أبعد، تقدير القبول بالجانب الأداتي للديمقراطية، مبررين هذا الاختيار بحجم المتاح في ظل الاستبداد. ورغم أنّه «لا يوجد في الخطاب الإسلامي المعاصر من يرفض الديمقراطية كليةً إلّا نادراً، وهذا التبني هو من تحولات الخطاب الإسلامي المعاصر، ولو في نسبيتها» (زكي، أ، ص ٧٣)، فتبقى الديمقراطية في الفكر الحركي الإسلامي، عبارة عن مجموعة من الإجراءات، والتقنيات، والأدوات المجردة من مصاحباتها الفلسفية (جبرون، ا، ٢٠١٣، ص ١٩٤- ١٩٦).

وإذا كان امحمد جبرون يعدّ حزب العدالة والتنمية في طور التحول من الاقتصار على تبني هذا الجانب من الديمقراطية، أي الجانب الأداتي، إلى تبني الممارسة الديمقراطية في بعدها الفلسفي، فإن تبني هذا الصنف من الخطاب يبقى بعيداً عمّا تم تسجيله في خطابات الأمين العام للحزب، على الأقل خلال مرحلة الدراسة، والملاحظ أنّ إثارتها تتم بشكل ملتبس، ويتم حصرها في العملية الانتخابية، على اعتبارها الوسيلة الوحيدة، بالنسبة إليه، التي تمكّن ممثلي الشعب من الولوج إلى مربع السلطة (فيديو رقم ٣٠١٨).

خلاصة

تتجلّى الخلاصات الأساسية لهذا العمل في تصنيف الأشكال الخطابية للأمين العام لحزب العدالة والتنمية إلى ثلاثة أصناف، وهكذا يمكن اعتبار الشكل الأول؛ وهو الخطاب الموجَّه إلى أعضاء وعضوات الحزب، بأنّه خطاب تعبوي بشحنة دينية واضحة، يتمركزحول الهوية في بعدها الديني. فهو خطاب تذكير

ووعود، تذكير بالانتماء للمرجعية الإسلامية، وللمرجعية التنظيمية والنضالية للحركة الإسلامية المؤسسة للحزب، ووعود للمنخرطين، ولكافة الشعب، بالآفاق الرحبة، شريطة الالتزام بالصبر، وتبني القيم المرجعية للحزب.

أما الشكل الثاني من الخطاب، أي الخطاب الموجَّه إلى الأعضاء والمتعاطفين، فهو خطاب من أجل الشعب وباسم الشعب، وهو خطاب تبرير وهجوم على العموم، تبرير القرارات التي اتخذتها الحكومة أو نفذتها، بينما يعتمد الهجوم على المنافسين الآخرين، إما بكيفيات مباشرة او عبر الإيحاءات، كما يرتكز على تمجيد الذات وإبراز صدقها وطهرانيتها.

أما الشكل الثالث من الخطاب؛ فهو خطاب في السياسية، يقوي الحزب من الناحية السياسية، ويتعلق بالخطابات داخل البرلمان للإجابة على أسئلة الفرق النيابية في البرلمان، أو اللقاءات الشهرية، ويحظى بتغطية تلفزيونية من قنوات الإعلام العمومية، وهو خطاب يبرز محورية الشعب كحاكم بين الفرقاء السياسيين، ويظهر ذكاؤه في إبراز من يكذب عليه، ومن يقول له الحقيقة، كما يدافع عن القرارات الحكومية، وعن صوابية اختيارات الحكومة، وتسفيه المنافسين الحزبيين، ويمكن اعتباره خطاب دفاع وتحايل؛ دفاع عن الفئات الهشة في المجتمع، من خلال إبراز الإنجازات التي حققتها الحكومة لصالح هذه الفئات، وتحايل عن تقديم أجوبة صريحة ومقنعة عن القضايا التي يثيرها الرأي العام، أو الفرق النيابية داخل البرلمان.

ويبقى الجانب المشترك في هذه الخطابات، أنها تستند إلى مرجعيتين أساسيتين، خطاب مؤسِّس وخطاب مؤسَّس:

الأول: وارد في كتابات الحركة الإسلامية وأدبياتها، وفي المرجعية الدينية والتنظيمية للحركة الإسلامية المؤسسة للحزب. أما الثاني؛ فهو اجتهاد ذاتي للأمين العام للحزب، يهدف إلى الدفاع عن الاختيار وإبراز صوابيته، ويذكر بمسار تأسيس التنظيم، سواء تعلق الأمر بالإكراهات التي واجهتهم أو الانتصارات التي حققوها. فإذا كان الصنف الثاني من الخطاب يستمد مشروعيته من الصنف الأول، فإنّه غالباً ما يتخذ شكل حجاج تلاسني، ومواكبة للأحداث السياسية، في محاولة منه لإحداث تطابق بين الخطابين رغم اختلافهما الكلي، على اعتبار أنّ الخطاب الأول هو خطاب في الدين، ومن أجل الدين، يهدف إلى التذكير بالمرجعيات التأسيسية للحركة الإسلامية، ومسار انتزاع مشروعية الاعتراف بها كحركة إصلاحية تهدف إلى لعب أدوار سياسية داخل المجتمع. أما الشكل الثاني من الخطاب؛ فهو خطاب من أجل السياسة، يهدف إلى الحفاظ على المسار، وتقوية التلاحم الداخلي للأعضاء، وكسب المزيد من المواقع داخل النظام السياسي بشكلٍ عام، والحقل الحزبي بشكلٍ خاص.

فإذا كان حزب العدالة والتنمية لا يخفي، من خلال مجموع خطابات أمينه العام، تمسّكه بالهوية الدينية، واستعداده الدائم للدفاع عنها، واعتمادها في كلّ كبيرة وصغيرة داخل الحقل السياسي، فإن مجموعة من الباحثين يعدّون هذا الاختيار اختياراً تتبناه الدولة بدورها.

فالمؤسسة الملكية، بالنسبة إلى محمد الطوزي، تحكم سيطرتها على الحقل السياسي من خلال احتكارها للحقل الديني (الطوزي، م، ٢٠٠١، ص ٦٧). وفي نفس الاتجاه يذهب حسن قرنفل؛ حيث يعدّ أنّ الملكية تستثمر الخطاب الديني في أيديولوجيتها وفي برامجها (قرنفل، ح، ٢٠٠٠، ص ١٠٨). وفي عملٍ حديثٍ آخر، يؤكّد أستاذ الفلسفة السياسية، فريد المريني، أنّ الشرعية السياسية في الحقل السياسي في المغرب، ترتكز بدورها على الشرعية الدينية، وذلك لا يعيق تحديث الحقل السياسي ومؤسساته فقط؛ بل وتحديث جميع المؤسّسات الأخرى (المريني، ف، ٢٠١٥، ص ٦٥).

بيبليوغرافيا:

الأنصاري فريد، الأخطاء الستة للحركة الإسلامية في المغرب، انحراف استصنامي في التصور والممارسة: حقائق تاريخية ومقولات نقدية تنشر لأول مرة! منشورات رسالة القرآن، مكناس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

أوملیل علي، أفكار مهاجرة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، آذار/مارس، ٢٠١٣.

تورين آلان، ماهي الديمقراطية: حكم الأكثرية أم ضمانات الأقلية، ترجمة: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ٢٠٠٠.

جاسم أفراح ناثر، حزب العدالة والتنمية المغربي، مركز الدراسات الإقليمية، دراسات إقليمية، الموصل (بدون تاريخ).

جبرون امحمد، «الإسلاميون في طور تحوّل: من الديمقراطية الأداتية إلى الديمقراطية الفلسفية: حالة حزب العدالة والتنمية المغربي،» مجلة تبين، عدد ٣، ٢٠١٣، ص ص ١٩٣- ٢٠٨.

زكي أحمد، «الديمقراطية في الخطاب الإسلامي الحديث والمعاصر»، في كتاب الحركات الإسلامية والديمقراطية: دراسات في الفكر والممارسة، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، يناير/ ١٩٩٩، ص ٦٣- ٨٨.

الطوزي محمد، الملكية والإسلام السياسي في المغرب، ترجمة: محمد حاتمي وخالد شكراوي، راجع نصوصه، عبد الرحيم بنحادة، نشر الفنك، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠١، الدار البيضاء.

قرنفل حسن، المجتمع المدني والنخبة السياسية: إقصاء أم تكامل؟ إفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

المريني فريد، التحديث في التاريخ السياسي والاجتماعي المغربي: دراسة سوسيولوجية تاريخية، إفريقيا النشر، المغرب، ٢٠١٥.

Allcock, J., et al., 1968. "To define Populism", Government and Opposition, An international Journal of comparative politics, Vol. 3, No. 2, Pp: 137-80.

Canovan, Margaret. 1984. "People', Politicians and Populism," Government and Opposition, An international Journal of comparative politics, Vol. 19, No. 3, pp: 312–27.

Canovan, Margaret. 1999. "Trust the People! Populism and the Two Faces of Democracy," Political Studies, Vol. XLVII, pp: 2-16.

Deiwiks Christa, 2009. "Populism", Living Reviews in Democracy, Vol. 1, pp: 1-9.

Douglas Madsen, 1987. "Political Self-Efficacy Tested", American Political Science Review, Vol. 81, pp: 571–81.

Ionescu, Ghita, et Gellner, Ernest, POPULISM: Its Meaning and National Characteristics, FIRST AMERICAN EDITION, 1969, Published in Great Britain in 1969 by Weidenfeld and Nicolson, London. The Macmillan Company, 1969.

Joshua, Dyck, J., et Lascher, L., Edward. 2009. "Direct Democracy and Political Efficacy Reconsidered," Political Behavior, Vol, 31, No. 3, pp: 401-27.

Knight, Alan, 1998. "Populism and Neo-populism in Latin America, especially Mexico," Journal of Latin American Studies, Vol. 30, No. 2, pp: .223-48

Mény, Yves, and Surel, Yves, Democracies and the Populist Challenge, Ed-.ited by Yves Mény and Yves Surel, Palgrave Macmillan, 2012

Mudde, cas, 2004. "The Populist Zeitgeist", Government and Opposition, .An international Journal of comparative politics, Vol. 39, No. 4, Pp: 541–63

Panizza, Francisco, Populism and the mirror of democracy, Ed by Francisco .Panizza, first published by Verso, London, New York, 2005

Spruyt, Bram et al., 2016. "Who Supports Populism and What Attracts People to It?" Political Research Quarterly, University of Utah, Reprints and .permissions: sagepub.com/journalsPermissions.nav, pp: 1-12

Spruyt, Bram, 2014. "An Asymmetric Group Relation? An Investigation into Public Perceptions of Education-Based Groups and the Support for .Populism,"Acta Politica, Vol. 49, p p: 123–43

Taguieff, P., A., 1997. "Le populisme et la science politique. Du mirage concep-.tuel aux vrais problèmes ", Vingtième siècle, Vol. 56 p p: 4– 33

hafryatnews

hafryat news

hafryatnews

صحيفة حفريّات تصدر عن مركز دال
35 شارع إسراء المهندسين ـ ميدان لبنان
الجيزة ـ جمهوريّة مصر العربيّة
www.hafryat.com

All rights reserved © 2017
www.hafryat.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
www.hafryat.com